# الباب العاشر

## الحملة الصليبية الثامنة

- نزول الصليبيين بقيادة لويس التاسع إلى قرطاجنة التونسية
- وفاة لويس التاسع في تونس

## الحملة الصليبية الثامنة

### سنة ٦٦٨ هـ - ٦٦٩ هـ - ١٢٦٩ م - ١٢٧٠ م.

### قادة الحملة : ملك فرنس (لويس التاسع)

### سبب الحملة :

بعد الضربات الموجعة التي وجهها القائد المملوكي **الظاهر بيبرس** وجيشه المسلم ضد الغزاة الصليبيين في الشام، نكث **لويس التاسع** بعهده فجهز حملة صليبية أخرى لقتال المسلمين إلا أنه لم يستطيع أن يتصدى للمماليك في بلاد الشام فما كان منه إلا أن وجه قواته نحو تونس. وتم خروجه من فرنسا يوم ١٥ مارس ١٢٧٠م والتحق به أتباعه وبعد إتمام عدته، اتجه يوم ٢ جويليه إلى مدينة كاغلياري وذلك على متن سفن جنوية. وفي هذه المدينة السردينيَّة اكتمل النصاب بوصول بقية المساهمين في الحملة. ومن الملاحظ إلى حد الآن أن جميع أعضاء الحملة كانوا متأكدين من تحولهم إلى المشرق الإسلامي نحو مصر أو فلسطين، لكن لويس التاسع جمع قادته ومرافقيه على متن سفينته، وطلب منهم الموافقة على تحويل وجهتهم نحو تونس. ولا تذكر المصادر ما هي المعطيات والعناصر التي اعتمد عليها الملك لإقناعهم، لكن يبدو أن جميعهم بما فيهم رجال الدين وافقوا على مطلبه لكن كيف تم له ذلك؟ بينما يعلمنا ابن خلدون أن لويس التاسع كان عازماً على غزو تونس قبل خروجه من فرنسا، وأن المستنصر الحفصي كان عالماً بذلك: إذ أمر السلطان في سائر عمالاته بالاستكثار من العدة وأرسل في الثغور لذلك بإصلاح الأسوار واختزان الحبوب. وبالرغم من ذلك. فقد بعث برسل إلى لويس التاسع لاختبار حاله ومشارطته على ما يكف عزمه ومن الممكن جداً أن عزمه على الاتجاه إلى تونس من الأول هو الأرجح. فعند اتجاهه المرة الأولى إلى المشرق سنة ١٢٤٨م تحول مباشرة عن طريق قبرص إلى دمياط. أما بالنسبة لهذه الحملة الثانية. فقد قدم عن طريق سردينيا، كما يفيدنا ابن خلدون « أن الطاغية جمع حشده وركب أساطيله إلى تونس آخر ذي القعدة سنة ثمان وستين بسردانيا وقيل بصقلية ». إلا أن المصادر الغربية تؤكد أن العملية تمت بسردينيا. هكذا يمكن إذن الاستنتاج أن **لويس التاسع** كان مقراً العزم على الاتجاه إلى تونس قبل خروجه من فرنسا، أيضاً أنه لم يعلن ذلك من الأول حتى يتجنب انسلاخ القادة الآخرين عنه ولم يتم إعلامهم باتجاههم إلى تونس إلا في آخر لحظة حتى وضعهم أمام الأمر الواقع. الدكتور محمد الباجي بن مامي

### الحفصيون

ينتمي الحفصيون إلى قبيلة هسكورة البربرية، ومسكنها في جبال الأطلس. استمدت تسميتها من أبي حفص عمر (١١٧٤-١١٩٥ م) أحد أجداد الأسرة ومن رجالات ابن تومرت الأوفياء. أصبح ابنه من بعده من عمال الموحدين على تونس. قام ابنه من بعده الأمير أبو زكريا يحيى (١٢٢٨-١٢٤٩ م) بالاستيلاء على السلطة وأعلن استقلاله واستطاع أن يؤسس دولة استخلصت الدولة الموحدية في المنطقة. **قضى ابنه المستنصر (١٢٤٩-١٢٧٧ م) على الحملة الصليبية الثامنة (سنة ١٢٧٠)**. ثم اتخذ لقب أمير المؤمنين. بعد وفاته تنازع أولاده الحكم. و جرت حروب طاحنة بينهم.

في أواخر القرن ١٣ م انشق عن الأسرة فرعين، حكم أحدهما في بجاية، والآخر في قسنطينة. في منتصف القرن ١٤ م استولى المرينيون على البلاد. بعد جلاء المرينيين استعادت الدولة الحفصية حيويتها ونشاطها مع حكم كل من أبي العباس أحمد (١٣٧٠-١٣٩٤ م)، أبي فارس عبد العزيز (١٣٩٤-١٤٣٤ م) ثم أبي عمر يحيى (١٤٣٥-١٤٨٨ م). عرفت هذه الفترة الاستقرار وعم الأمن رجاء الدولة. أصبحت العاصمة تونس مركزاً تجارياً مهماً.

ابتداءاً من سنة ١٤٩٤ م بدأت مرحلة السقوط السريع. استقلت العديد من المدن والمناطق. منذ ١٥٠٥ م سيطر **العثمانيون** عن طريق قادتهم **عروج و خير الدين بربروسة** على المنطقة. حاصر الإمبراطور الجرماني كارل الخامس (و ملك إسبانيا باسم كارلوس الأول) تونس سنة ١٥٣٥ م. آخر الحفصيين وقع بين الضغط المتزايد من القادة العثمانيون والذين استقروا في الجزائر من جهة. والإسبان من جهة أخرى.

سنة ١٥٧٤ م يفتح حكام الجزائر في دخول تونس، ثم خلع آخر السلاطين الحفصيين ودخلت بذلك تونس تحت سلطة العثمانيين.

قبل وصول الحملة الصليبية الثامنة إلى تونس، أصبح المستنصر رمزاً هاماً في العالم الإسلامي. فهو مع لقب الخليفة الذي تسمى به سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م، اتخذ أيضاً لقب أمير المؤمنين، ولا يستبعد أن يكون هذا العامل من الأسباب التي دفعت **لويس التاسع** إلى تغيير اتجاه الحملة الصليبية الثامنة إلى تونس. ومن البديهي أن مهاجمة هذا الرمز الذي أصبح له كثير من الدلالات ستشكل هزيمته انتصاراً روحياً ومعنوياً على بقية العالم الإسلامي. ومن الممكن جدا أن لويس التاسع أراد أيضاً من وراء حملته هذه إضعاف المستنصر وبالتالي منعه من إغاثة الأندلس، التي مثلت هي الأخرى حلقة من حلقات صراع المسلمين مع القوى النصرانية. وبالتالي يمكن تصور موقف الملك الفرنسي من قضية إخوانه في الدين، الذين كانوا بصدد الاستيلاء على البقية المتبقية من الإمارات الإسلامية في الأندلس. وهكذا، فإن الهجوم على تونس ساعد بصفة فعلية في وقف أي مساعدة يمكن أن تصل إلى مسلمي الأندلس. وهو بالطبع ما كان يصبو إليه كل الصليبيين، بمن فيهم لويس التاسع. أما ابن خلدون، فيفسر مبادرة لويس التاسع، برجوعه إلى الفترات القديمة من تاريخ إفريقية التي كانت من أول البلاد التي دخلت الدين المسيحي وساندته إلى أن جاء الإسلام، وكان الفتح. فيوضح صاحب « المقدمة » أن ذلك هو ما يفسر أنه لم تزل في نفوسهم (أي النصارى) من ذلك ضغائن، فكان يخالجهم الضمع في ارتجاع ما غلبوا عليه. وهو - لعمري غير - مستبعد. فخلال فترة الحماية الفرنسية لتونس لاحظنا الكثير من المستشرقين الذين يميلون إلى هذا النوع من التفكير. وقد وجدت هذه الحملة هي الأخرى مساندة البابا أوربان الرابع، فلا غرابة إذن في قرار سان لويس أن يقود **حملتين صليبيتين**، وهو ما يدفعنا إلى الاحتمال إلى أن دوافعه كانت في مرتبة أولى دينية حتى أنه سمي بالقديس لويس، ثم اقتصادياً واجتماعياً.

## نزول الصليبيين بقرطاجنة وخطة المستنصر بالله الحفصي

جاءت الأخبار إلى المستنصر بالله تعلمه بتوجه **الصليبيين** إلى **تونس**، فعقد مجلسه الشورى الذي بحث فيه كيفية التعامل مع الحدث، هل يسمح للصليبيين بالنزول، أو يصدون عنه. وأخيراً استقر الرأي على أن يسمح لهم بالنزول مخافة أن ينزلوا في مكان آخر غير حصين. ولا مستعد لقتال. وبعث بالنفير على أطراف مملكته. فجاءت النجدات من مختلف الجهات.

وفي آخر ذي القعدة سنة ٦٦٨ هـ ١٢٧٠ م، أرست أساطيل **لويس التاسع** أمام مدينة **قرطاجنة العتيقة**، ونزلوا عساكرهم بالمدينة القديمة من قرطاجنة وكانت ماثلة الجدران. ووصلوا ما فصله الخراب من أسوارها بألواح الخشب ونصبوا شرفاتها، وأداروا على السور خندقاً بعيد المهوى. وكانت عدتهم ستة آلاف فارس وثلاثين ألفاً من الرجّالة، وكانت أساطيلهم ٣٠٠ مركب بين كبير وصغير. ولم يشرع **الصليبيون** في مهاجمة أو قتال جدّي: فقد كان لويس التاسع **يترقب وصول أخيه شارل دانجو من صقلية**.

بقايا لآثار لويس التاسع موجودة في اللوفر

وفي واقع الأمر أن **المستنصر بالله** لم يفكر في مهاجمة **الصليبيين**؛ فقد كانت خطته مبنية على مجرد الدفاع والمحاصرة. وكان جنده يتكون من جيشه، وقوات الموحدين، ومن المتطوعة. وملئت سواحل قرية رادس بالجند تحت قيادة محمد بن أبي الحسين، رئيس الدولة. وعقد ألوية سبعة تحت نظر يحيى بن ابي بكر ويحيى بن صالح الحصار الصليبيين من الناحية البرية، وخرج كثير من الصلحاء والفقهاء، والمرابطون لمباشرة القتال بأنفسهم. ولم تكن بين الفريقين معارك ذات أهمية سوى ما ذكره ابن خلدون من أنه في أول محرم سنة ٦٦٩ هـ **وقعت معركة كبيرة** قتل فيها كثير من الفريقين كما قام بعض الجند بمفاجأة للصليبيين عندما سلكوا طريق البحيرة حتى وصلوا إلى المعسكر الصليبي من طريق غير منتظر خروجهم منه وظفر هؤلاء المغامرون ببعض الشيء من الصليبيين الذين تفطنوا لهذا، وأقاموا حراسة من جانب البحيرة. وطالت محاصرة الصليبيين حتى نا لهم التعب والجوع، وتفشت فيهم الأمراض والأوبئة **ولم يسلم لويس التاسع منه. فمات بإصابة وبائية** في المحرم سنة ٦٦٩ هـ في نفس اليوم الذي وصل فيه **أخوه ملك صقلية** وبعد ساعات من موته. فباشر القيادة بنفسه؛ لكنه فضل الصلح مع المستنصر الحفصي.

تجمع المصادر على أن لويس التاسع قبع في تحصيناته **بقرطاج**

إلا أن سكان البلاد الذين يعرفون بطريقة جيدة الطرقات المؤدية إلى قرطاج، استطاعوا في العديد من المرات التسلل عن طريق البحيرة ومباغتة جيوش العدو، إلاّ أن المصادر الغربية نسبت ذلك إلى تظاهر الأعراب بالدخول في الدين النصراني. وهذا افتراء محض. وعند اقترابهم من صفوف الصليبيين غدروا بهم وطعنوا البعض منهم. على كل هذه المناوشات لم تأت بأي نتيجة تذكر، إذ عرف الصليبيون الأماكن التي يصل منها المسلمون فحصنوها ووضعوا حراساً في البحيرة.

طوال المدة التي مكثها الصليبيون بقرطاج تقارب ( أربعة أشهر )، في حين يرى ابن خلدون أنها ستة أشهر!.

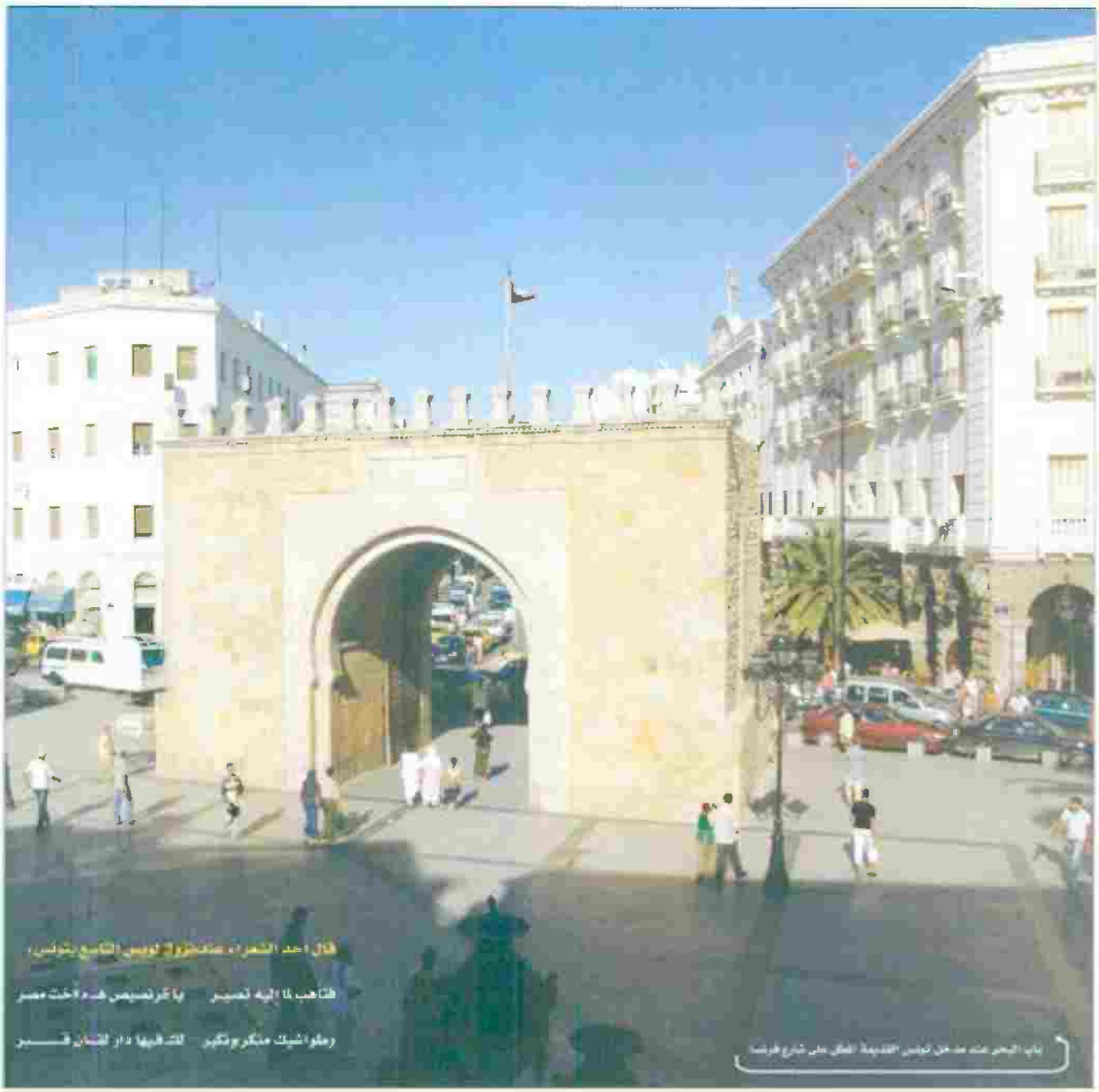


كان أهم ما اشتملت عليه **اتفاقية الصلح بين الصليبيين والمسلمين**، عقد هدنة بين الطرفين لمدة خمسة عشر عماً تدفع أثناءها الغرامة الحربية التي التزم بها المستنصر بالله الحفصي للصليبيين، وأن يقع احترام مصالح الطرفين الدينية والتجارية، وألا يتعرض الصليبيون لجهة من جهات المسلمين التابعة لسلطان تونس حالاً أو مآلاً. وتضمنت الاتفاقية فقرة خاصة **بملك صقلية** في شأن الأموال التي ادّعاها على الدولة الحفصية.

وكان الذي تولى كتابة عقد الصلح القاضي ابن زيتون. وكان حاضراً معه أبو الحسن علي بن عمرو، وأحمد بن الغماز، وأبو زيان بن محمد بن عبد القوي. وباتمام العقد على الصلح اتصل الفريقان اتصالاً سلمياً، ودخل المسلمون محلة النصارى وباعوا معهم واشتروا. وكانت مدة إقامتهم بتونس أربعة أشهر – كما ذكرنا ذلك على الصورة في الصفحة السابقة – وأقلعت القوات الصليبية عن تونس بعد مدة يسيرة من إتمام الصلح. وصادفتها – عرض البحر – عاصفة شديدة أتت على الكثير من سفنها ورجالها، ووصلت البقية إلى جزيرة صقلية القريبة من تونس سالمة.

اتكأ الصليبيون على التوسع الاستعماري لدولهم الصليبية. وإن ذلك التوسع قام - ولا يزال - على دعامتين هما: القوة العسكرية، ووسائل النشر والإعلام. ولا تزال هذه السمات واضحة للعيان، بل تزداد ضراوة مع تطور وسائل الحرب الأخرى وأسلحة الدمار، واتساع حقول الاعلام الغربي عبر أجهزة وأدوات غير مسبوقة في قوتها ومدى انتشارها وتأثيرها، لكن ظل المسجد ولا يزال المنبر الأقوى ضد الحملات المغرضة وهذا ما فعله الزيتونة: إبان الحروب الصليبية والاستعمار الحديث.

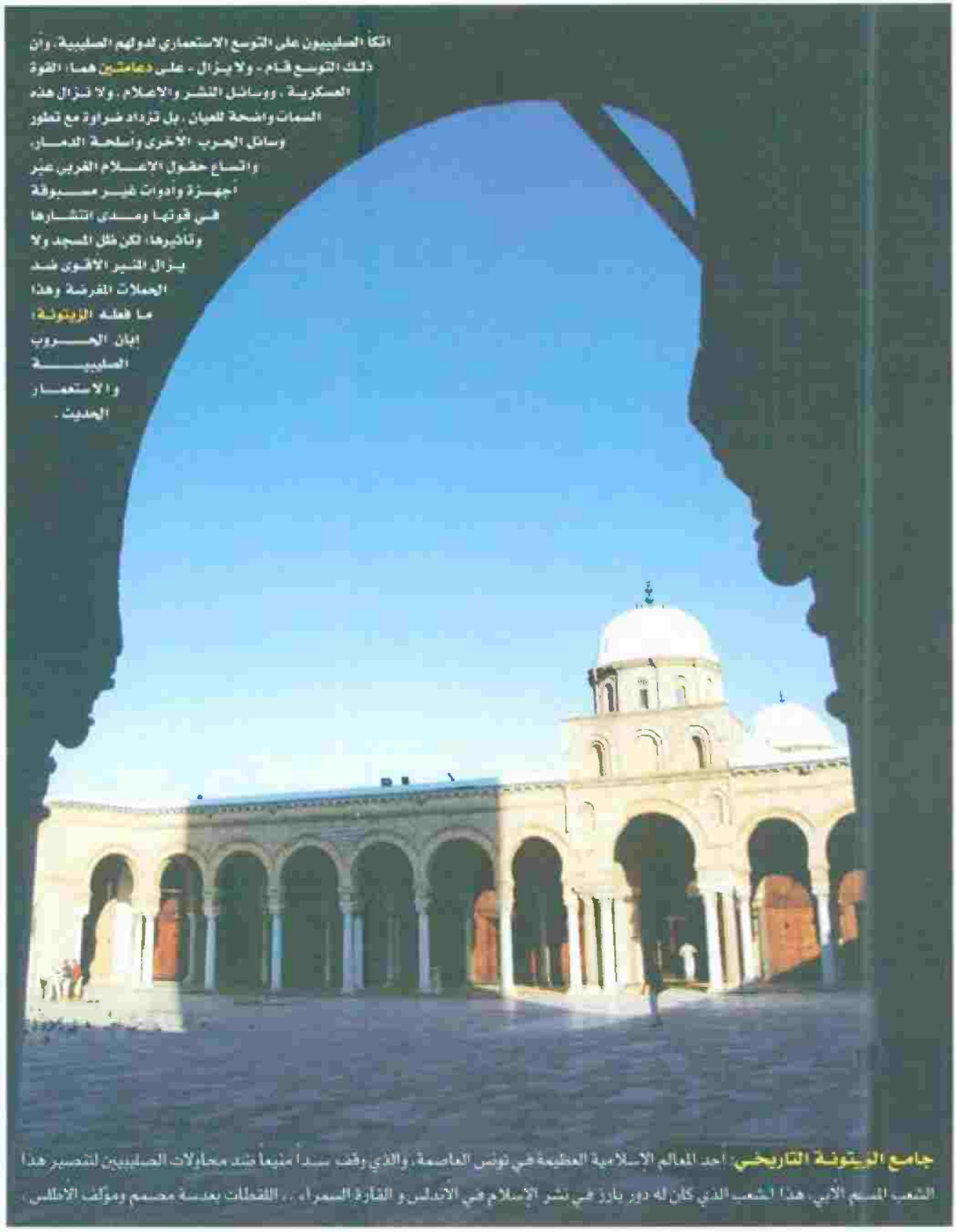

**جامع الزيتونة التاريخي:** أحد المعالم الإسلامية العظيمة في تونس العاصمة، والذي وقف سداً منيعاً ضد محاولات الصليبيين لتنصير هذا الشعب المسلم الأبي، هذا الشعب الذي كان له دور بارز في نشر الإسلام في الأندلس و القارة السمراء.. القطعات بعدسة مصمم ومؤلف الأطلس.

## أهم مصادر ومراجع الباب العاشر


١ - الدكتور محمد الباجي بن مامي، حملة لويس التاسع على تونس (فصل من الحروب الصليبية)، مجلة التاريخ العربي، أعداد مختلفة .

٢ - ستيفن رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية . ترجمة السيد الباز العريني . دار الثقافة . بيروت . ١٩٦٩م.

٣ - د . سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية . مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة . ١٩٨٢م.

٤ - محمد مصطفى زياد . حملة لويس التاسع . المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب . القاهرة ١٣٨١ هـ . ١٩٦١ م.

٥ - موسوعة ويكبيديا على الشبكة العنكبوتية .

٦ - سامي بن عبد الله المغلوث، الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى . دار الوراق، طبع ونشر ١٤١٩ هـ .